

جمال عبد الناصر

اخترنا لك
٣



فلسفة الثورة

اخترنا لك ...
٣

فلسفة الثورة

بقلم
جمال عبد الناصر

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر



جمال عبد الناصر

مقدمة

إن هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ليست محاولة لتأليف كتاب ...

ولا هى محاولة لشرح أهداف ثورة ٢٣ يوليو وحوادثها ...

إنما هى شىء آخر تماماً ...

إنها أشبه ما تكون بدورية استكشاف ...

إنها محاولة لاستكشاف نفوسنا ، لكى نعرف من نحن وما هو دورنا فى تاريخ مصر المتصل الحلقات ...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا فى الماضى والحاضر ، لكى نعرف فى أى طريق نسير ...

ومحاولة لاستكشاف أهدافنا ، والطاقة التى يجب أن نحشدها لنحقق هذه الأهداف ...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا ، لنعرف أننا لا نعيش فى جزيرة يعزلها الماء من جميع الجهات .

هذا هو الذى قصدت إليه...

مجرد دورية استكشاف فى الميدان الذى نحارب فيه معركتنا الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الأغلال !

الجزء الأول

ليست فلسفة – محاولات لم تتم – ليست مجرد تمرد – كنا فى فلسطين وأحلامنا فى مصر – أحمد عبد العزيز قبل أن يموت – درس من إسرائيل – أيام التلمذة – الحقيقة والفراغ – لماذا كان لابد أن يتحرك الجيش – الصورة الكاملة – الطليعة والجموع – أقصى أمانى – نموذج من أعضاء مجلس الثورة – أزمات نفسية – ثورتان فى وقت واحد – لكيلا يقع تصادم على الطريق .

قبل أن أمضى فى هذا الحديث أريد أن أقف قليلا عند كلمة « فلسفة » .

إن الكلمة ضخمة وكبيرة .

وأنا أحس وأنا واقف حيالها أنى أمام عالم واسع ليس له حدود ، وأشعر فى نفسى برهبة خفية تمنعنى من أن أخوض فى بحر ليس له قاع ، ولا أرى له على البعد — من الشاطئ الذى أقف فيه — شاطئاً آخر أنتهى إليه . . .

والحق أنى أريد أن أتجنب كلمة فلسفة فى هذا الذى سأقوله ، ثم أنا أظن أنه من الصعب علىّ أن أتحدث عن فلسفة الثورة .

من الصعب لسببين :

أولهما أن الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه أساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا .

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء ، وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز إلى الوجود دون مقدمات .

إن كفاح أى شعب ، جيلا بعد جيل ، بناء يرتفع حجراً فوق حجر . . .

وكما أن كل حجر فى البناء يتخذ من الحجر الذى تحته قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب .

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو فى نفس الوقت

مقدمة لحدث ما زال فى ضمير الغيب . . .

* * *

ولست أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ التاريخ . . .

ذلك آخر ما يجرى به خيالى .

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدىء ، فى دراسة قصة كفاح شعبنا، فإنى سوف أقول مثلا إن ثورة ٢٣ يوليو هى تحقيق للأمل الذى راود شعب مصر، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه بأيدى أبنائه، وفى أن تكون له بنفسه الكلمة العليا فى مصيره . . .

لقد قام بمحاولة لم تحقِّق له الأمل الذى تمناه ، يوم تزعَّم السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد على والياً على مصر ، باسم شعبها . . .

وقام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، يوم حاول عرابى أن يطالب بالدستور . . .

وقام بمحاولات متعددة لم تحقق له الأمل الذى تمناه ، فى فترة الغليان الفكرى التى عاشها بين الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩ .

وكانت هذه الثورة الأخيرة – ثورة ١٩١٩ – بزعامة سعد زغلول، محاولة أخرى لم تحقق له الأمل الذى تمناه .

* * *

وليس صحيحاً أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التى أسفرت عنها حرب فلسطين ، وليس صحيحاً كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التى راح ضحيتها جنود وضباط ، وأبعد من ذلك عن الصحة

ما يقال من أن السبب كان أزمة انتخابات نادى ضباط الجيش .

إنما الأمر فى رأيى كان أبعد من هذا وأعمق أغواراً .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا أن يثوروا لأنفسهم لأنه قد غُرر بهم فى فلسطين ، أو لأن الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم ، أو لأن اعتداء وقع على كرامتهم فى انتخابات نادى ضباط الجيش ، لما كان الأمر يستحق أن يكون ثورة ، ولكان أقرب الأشياء إلى وصفه أنه مجرد تمرد ، حتى وإن كانت الأسباب التى أدت إليه منصفة عادلة فى حد ذاتها . . .

لقد كانت هذه كلها أسباباً عارضة . . .

وربما كان أكبر تأثير لها أنها كانت تستحثنا على الإسراع فى طريق الثورة ، ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق .

وأنا أحاول اليوم بعد كل ما مر بى من أحداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير فى الثورة ، أن أعود بذاكرتى وأتعقب اليوم الأول الذى اكتشفت فيه بذورها فى نفسى .

إن هذا اليوم أبعد فى حياتى من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ ، أيام ابتداء أزمة نادى الضباط ؛ فنى ذلك الوقت كان تنظيم الضباط الأحرار قائماً يباشر عمله ونشاطه ، بل أنا لا أغالى إذا قلت إن أزمة انتخابات النادى أثارها أكثر من أى شىء آخر نشاط الضباط الأحرار ، فقد شئنا فى ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم — فى حياتى أيضاً — أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة؛ فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجوداً قبلها ، وكانت منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضجة التى قامت حول الأسلحة الفاسدة .

* * *

بل إن هذا اليوم فى حياتى أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ذلك اليوم الذى كان بداية حياتى فى حرب فلسطين .

وحين أحاول الآن أن أستعرض تفاصيل تجاربنا فى فلسطين أجد شيئاً غريباً .

فقد كنا نحارب فى فلسطين ، ولكن أحلامنا كلها كانت فى مصر .

كان رصاصنا يتجه إلى العدو الرابض أمامنا فى خنادقه ، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب ترعاه . . .

وفى فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز :

فى فلسطين جاءنى صلاح سالم وزكريا محيى الدين ، واخترقا الحصار إلى الفالوجا ، وجلسنا فى الحصار لا نعرف له نتيجة ولانهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يتعين علينا أن نحاول إنقاذه . . .

وفى فلسطين جلس بجوارى مرة كمال الدين حسين وقال لى وهو ساهم الفكر شارد النظرات :

— هل تعلم ماذا قال لى أحمد عبد العزيز قبل أن يموت ؟
قلت :
— ماذا قال . . ؟
وقال كمال الدين حسين وفى صوته نبرة عميقة وفى عينيه نظرة أعمق :
— لقد قال لى : اسمع يا كمال ، إن ميدان الجهاد الأكبر هو فى مصر . . .

* * *

ولم ألتق فى فلسطين بالأصدقاء الذين شاركونى فى العمل من أجل مصر ، وإنما التقيت أيضاً بالأفكار التى أنارت أمامى السبيل .
وأنا أذكر أيام كنت أجلس فى الخنادق وأسرح بذهنى إلى مشاكلنا . . .
كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضرباً بالمدافع والطيران تركيزاً هائلا مروعاً .
وكثيراً ما قلت لنفسى :
« ها نحن هنا فى هذه الجحور محاصرين ، لقد غُرر بنا ، دُفعنا إلى معركة لم نعدّ لها ، لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتُركنا هنا تحت النيران بغير سلاح » .
وحين كنت أصل إلى هذا الحد من تفكيرى ، كنت أجد خواطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود ، إلى مصر ، وأقول لنفسى :

« هذا هو وطننا هناك ، إنه « فالوجة » أخرى على نطاق كبير . . .
إن الذى يحدث لنا هنا ، صورة من الذى يحدث هناك ... صورة مصغرة ..
وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء ، وغُرر به ، ودُفع إلى معركة لم يعدّ لها ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتُرك هناك تحت النيران بغير سلاح ! »

* * *

وأكثر من هذا ، لم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معى عن مستقبل وطننا فى فلسطين، ولم تكن التجارب هى التى قرعت أفكارنا بالنُّذر والاحتمالات عن مصيره ، بل إن الأعداء أيضاً لعبوا دورهم فى تذكيرنا بالوطن ومشاكله . . .

ومنذ أشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عنى ضابط إسرائيلى اسمه « يردهان كوهين » ، ونشرتها له جريدة «جويشن أوبزرفر »، وفى هذه المقالات روى الضابط اليهودى كيف التقى بى أثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة، وقال :

« لقد كان الموضوع الذى يطرقه جمال عبد الناصر معى دائماً هو كفاح إسرائيل ضد الإنجليز ، وكيف نظمنا حركة مقاومتنا السرية لهم فى فلسطين ، وكيف استطعنا أن نجند الرأى العام فى العالم وراءنا فى كفاحنا ضدهم. . . » .

* * *

ثم إن هذا اليوم ـــ اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى

نفسي — أبعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذى كتبتُ بعده خطاباً إلى صديق قلت له فيه :

« ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين ؟ . . .

الحقيقة أنى أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة فى يده بقصد التهديد فقط ، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأى امرأة من العاهرات . . . »

وطبعاً هذا حاله ، أو تلك عادته . . .

أما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح والإحساس فيه ، فبعد أن كنت ترى الضباط لا يتكلمون إلا عن الفساد واللهو ، أصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس فى سبيل الكرامة ، وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا — مع ضعفهم الظاهر — ويردوا للبلاد كرامتها ويغسلوها بالدماء ، ولكن غداً لناظره قريب . . .

لقد حاول البعض بعد الحادث أن يعملوا شيئاً بغية الأنتقام ، ولكن الوقت كان قد فات ، أما القلوب فكلها نار وأسى . . .

والواقع أن هذه الحركة ، أن هذه الطعنة ، ردت الروح إلى بعض الأجساد ، وعرّفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها ؛ وكان هذا درساً قاسياً .

* * *

وكذلك فإن هذا اليوم أبعد فى حياتى من الفوران الذى عشت فيه أيام كنت طالباً أمشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ — وقد عاد الدستور بالفعل — فى سنة ١٩٣٥ ، وأيام كنت أسعى مع وفود الطلبة إلى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر. وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على أثر هذه الجهود .

وأذكر أننى فى فترة الفوران هذه كتبت خطاباً إلى صديق من أصدقائى — هو الأستاذ على النشار — قلت فيه، وكان تاريخه ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ :

« أخى على . . .

خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس فى التليفون ، وقد سألته عنك فأخبرنى أنك موجود فى المدرسة . . .

لذلك عولت على أن أكتب إليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونياً . . .

قال الله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . .» فأين تلك القوة التى نستعد بها لهم ؟

إن الموقف اليوم دقيق ، ومصر فى موقف أدق ؛ ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت ، فإن بناء اليأس عظيم الأركان ؛ فأين من يهدم هذا البناء ؟ »

ثم مضيت فى الخطاب إلى آخره . . .

وإذن فمتى كان ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى أعماقى ؟

فلو أضفت إلى هذا كله ، أن تلك البذور لم تكن كامنة فى أعماقى وحدى ، وإنما وجدتها كذلك فى أعماق كثيرين غيرى — هم الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها داخل كيانه — لاتضح إذن أن هذه البذور وُلدت فى أعماقنا حين ولدنا ، وأنها كانت أملا مكبوتاً خلّفه فى وجداننا جيل سبقنا . . .

* * *

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح السبب الأول الذى من أجله وجدت من الصعب علىّ أن أتحدث عن فلسفة الثورة وقلت إن هذا الحديث يلزمه أساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا . . .

أما السبب الثانى فهو أننى كنت بنفسى داخل الدوامة العنيفة للثورة .

والذين يعيشون فى أعماق الدوامة قد تخفى عليهم بعض التفاصيل البعيدة عنها . . .

وكذلك كنت بإيمانى وعقلى وراء كل ما حدث ، وبنفس الطريقة التى حدث بها ؛ وإذن فهل أستطيع أن أتجرد من نفسى حين أتكلم عنه ، وحين أتكلم عن المعانى المستترة وراءه ؟

أنا من المؤمنين بأنه لا شىء يمكن أن يعيش فى فراغ . . .

حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش فى فراغ . . .

والحقيقة الكامنة فى أعماقنا هى : ما نتصور نحن أنه الحقيقة .

أو بمعنى أصح: هو الحقيقة مضافاً إليها نفوسنا . . .

نفوسنا هي الوعاء الذى يعيش فيه كلُّ ما فينا ، وعلى شكل هذا الوعاء سوف يتشكل كل ما يدخل فيه ، حتى الحقائق .

وأنا أحاول — بقدر ما تستطيع طاقتى البشرية ، أن أمنع نفسى من أن تغيّر كثيراً من شكل الحقيقة؛ ولكن إلى أى حد سوف يلازمنى التوفيق ؟

هذا سؤال !

وبعده أريد أن أكون منصفاً لنفسى ، ومنصفاً لفلسفة الثورة؛ فأتركها للتاريخ يجمع شكلها فى نفسى ، وشكلها فى نفوس غيرى ، وشكلها فى الحوادث جميعاً ، ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة . . .

* * *

وإذن فما الذى أريد أن أتحدث عنه إذا كنت قد استبعدت كلمة « فلسفة » ؟ الواقع أن الذى أملكه فى هذا الصدد شيئان :

أولهما مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم ، ثم شكلَ الفكرة المحدد ، ثم شكل التدبير العملى ، حتى منتصف ليل ٢٣ يوليو .

وثانيهما تجارب وضعت هذه المشاعر ، بأملها المبهم ، وفكرتها المحددة وتدبيرها العملى ، موضع التنفيذ الفعلى فى منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن . . .

وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث . . .

لطالما ألح على خواطرى سؤال ، هو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ »

لقد قلت منذ سطور ، إن ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقاً لأمل كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه فى أيدى أبنائه ، وفى أن تكون له بنفسه الكلمة العليا فى مصيره . . .

وإذا كان الأمر كذلك ، ولم يكن الذى حدث يوم ٢٣ يوليو تمرداً عسكرياً ، وليس ثورة شعبية ؛ فلماذا قُدر للجيش ، دون غيره من القوى ، أن يحقق هذه الثورة ؟

ولقد آمنت بالجندية طول عمرى ؛ والجندية تجعل للجيش واجباً واحداً ، هو أن يموت على حدود وطنه ؛ فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطراً للعمل فى عاصمة الوطن ، وليس على حدوده ؟

ومرة أخرى ، دعونى أنبه إلى أن الهزيمة فى فلسطين ، والأسلحة الفاسدة ، وأزمة نادى الضباط — لم تكن المنابع الحقيقية التى تدفق منها السيل ؛ لقد كانت هذه كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق ، ولكنها — كما سبق أن قلت — لا يمكن أبداً أن تكون هى الأصل والأساس .

وإذن فلماذا وقع على الجيش هذا الواجب ؟

قلت إن هذا السؤال طالما ألح على خواطرى . . .

ألح عليها ونحن فى دور الأمل والتفكير والتدبير قبل ٢٣ يوليو ، وألح عليها فى مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو .

ولقد كانت أمامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب أن نقوم بالذى قمنا به . . .

كنا نقول : إذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟

وكنا نقول : كنـــا نحن الشبح الذى يؤرق به الطاغية أحلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول إلى الطاغية فيبدد أحلامه هو . . .

وكنا نقول غير هذا كثيراً ، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله ، أننا كنا نشعر شعوراً يمتد إلى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب واجبنا ، وأننا إذا لم نقم به فإننا نكون قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها . . .

ولكنى أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح فى خيالى إلا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو . . .

وكانت تفاصيل هذه التجربة ، هى بعينها تفاصيل الصورة .

* * *

وأنا أشهد أنه مرت علىَّ بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسى وزملائى وباقى الجيش بالحماقة والجنون الذى صنعناه فى ٢٣ يوليو . . .

لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفاً متراصة منتظمة تزحف زحفاً مقدساً إلى الهدف الكبير . . .

وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت أظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتى بعدنا الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير ؛ بل لقد كان الخيال يشط بى أحياناً فيخيل إلىّ أنى أسمع صليل الصفوف المتراصة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم إلى الهدف الكبير ، أسمع هذا كله ويبدو فى سمعى من فرط إيمانى به حقيقة مادية وليس مجرد تصورات خيال . . .

ثم فاجأنى الواقع بعد ٢٣ يوليو . . .

قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ؛ ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير . . .

وطال انتظارها . . .

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر . . . ولكن ما أبعد الحقيقة عن الخيال !

كانت الجموع التى جاءت أشياعاً متفرقة ، وفلولا متناثرة ؛ وتعطل الزحف المقدس إلى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر . . .

وساعتها أحسست وقلبى يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة، أن مهمة الطليعة لم تنته فى هذه الساعة ، وإنما من هذه الساعة بدأت . . .

كنا فى حاجة إلى النظام، فلم نجد وراءنا إلا الفوضى . . .

وكنا فى حاجة إلى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا إلا الخلاف . . .

وكنا فى حاجة إلى العمل ، فلم نجد وراءنا إلا الخنوع والتكاسل . . .

ومن هنا وليس من أى شىء آخر ، أخذت الثورة شعارها .

* * *

ولم نكن على استعداد . . .

وذهبنا نلتمس الرأى من ذوى الرأى ، والخبرة من أصحابها . . . ومن سوء حظنا لم نعثر على شىء كثير . . .

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر !

وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلى هدم فكرة أخرى !

ولو أننا أطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعدها ما نعمله إلا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس !

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف ؛ ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروى لنا حالات تستحق الإنصاف ، أو مظالم يجب أن يعود إليها العدل ، لكان الأمر منطقياً ومفهوماً ؛ ولكن معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام . . . كأن الثورة قامت لتكون سلاحاً فى يد الأحقاد والبغضاء !

* * *

ولو أن أحداً سألنى فى تلك الأيام : ما هى أعز أمانيك؟ لقلت له على الفور :

— أن أسمع مصرياً يقول كلمة إنصاف فى حق مصرى آخر . . .
أن أحس أن مصريا قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لإخوانه المصريين . . .
أن أرى مصرياً لا يكرس وقته لتسفيه آراء مصرى آخر . . .
وكانت هناك بعد ذلك كله أنانية فردية مستحكمة . . .
كانت كلمة « أنا » على كل لسان . . .
كانت هى الحل لكل مشكلة ، وهى الدواء لكل داء . . .
وكثيراً ما كنت أقابل كبراء — أو هكذا تسميهم الصحف — من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم فى مشكلة ألتمس عنده حلا لها ؛ فلم أكن أسمع إلا « أنا » . . .
مشاكل الاقتصاد « هو » وحده يفهمها، أما الباقون جميعاً فهم فى العلم بها أطفال يحبون .
ومشاكل السياسة « هو » وحده الخبير بها ، أما الباقون جميعاً فما زالوا فى « ألف باء » لم يتقدموا بعدها حرفاً واحداً .
وكنت أقابل الواحد من هؤلاء ، ثم أعود إلى زملائى فأقول لهم فى حسرة :
— لا فائدة ، هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك فى جزائر هاواى لما وجدنا عنده جواباً إلا كلمة « أنا » ! . . .

* * *

أذكر مرة كنت أزور فيها إحدى الجامعات ، ودعوت أساتذتها

وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء . . .

وتكلم أمامى منهم كثيرون . . . تكلموا طويلا . . .

ومن سوء الحظ أن أحداً منهم لم يقدم لى أفكاراً ، وإنما كل واحد منهم لم يزد على أن قدم لى نفسه ، وكفاياته الخلقية وحدها بعمل المعجزات ، ورمقنى كل واحد منهم بنظرة الذى يؤثرنى على نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود !

وأذكر أنى لم أتمالك نفسى فقمت بعدها أقول لهم :

« إن كل فرد منا يستطيع فى مكانه أن يصنع معجزة ، إن واجبه الأول أن يعطى كل جهده لعماله ، ولو أنكم ، كأساتذة جامعات ، فكرتم فى طلبتكم ، وجعلتموهم — كما يجب — عملكم الأساسى ، لاستطعتم أن تعطونا قوى هائلة لبناء الوطن .

إن كل واحد يجب أن يبقى فى مكانه ويبذل فيه كل جهده .

لا تنظروا إلينا ، لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس ، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا إلا فى صفوف الجيش كجنود محترفين ، وإذن لبقينا فيه . . . »

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، ولم أشأ أن أقول لهم إنهم قبل أن يدعوهم الطارىء الذى دعاهم إلى الواجب الأكبر كانوا يبذلون فى عملهم كل جهدهم .

ولم أشأ أن أقول لهم إن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة فى كلية أركان الحرب ، وهذا دليل امتيازهم فى ناحيتهم كجنود محترفين ...

وكذلك لم أشأ أن أقول لهم إن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وكمال الدين حسين ، رقوا ترقيات استثنائية فى ميدان القتال فى فلسطين .

لم أشأ أن أقول لهم شيئاً من هذا ، لأنى لا أريد أفاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم إخوتى وزملائى . . .

* * *

وأعترف أن هذا الحال كله سبّب لى أزمة نفسية كئيبة .

ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمُّل هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية ، خففت من وقع الأزمة فى نفسى ، وجعلتنى ألتمس لهذا كله أعذاراً من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامى — إلى حد ما — الصورة الكاملة لحالة الوطن ؛ وأكثر من هذا أعطتنى الجواب على السؤال الذى قلت إنه طالما راودنى ، وهو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو ؟ »

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب أو مفر !

وأنا الآن أستطيع أن أقول إننا نعيش فى ثورتين وليس فى ثورة واحدة . . .

ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان :

ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فُرض عليه ، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه .

وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معاً ، وإنما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ؛ أما نحن فإن التجربة الهائلة التى امتُحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معاً فى وقت واحد . . .

* * *

وهذه التجربة الهائلة مبعثها أن لكل من الثورتين ظروفاً مختلفة تتنافر تنافراً عجيباً وتتصادم تصادماً مروِّعاً . . .

إن الثورة السياسية تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة وترابطها وتساندها ونكرانها لذاتها فى سبيل الوطن كله .

والثورة الاجتماعية من أول مظاهرها تزلزل القيم ، وتخلخل العقائد ، وتصارع المواطنين مع أنفسهم أفراداً وطبقات ، وتحكُّم الفساد والشك والكراهية ... والأنانية . . .

وبين شقَّى الرحى هذين، قُدر لنا أن نعيش اليوم فى ثورتين : ثورة تحتم علينا أن نتحد ، ونتحاب ، ونتفانى فى الهدف ؛ وثورة تفرض علينا – برغم إرادتنا – أن نتفرق، وتسودنا البغضاء ، ولا يفكر كل منا إلا فى نفسه . . .

وبين شقى الرحى هذين – مثلا – ضاعت ثورة ١٩١٩ ولم تستطيع أن تحقق النتائج التى كان يجب أن تحققها .

الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ لتواجه الطغيان ، لم تلبث إلا قليلا ثم شغلها الصراع فيما بينها أفراداً وطبقات .

وكانت النتيجة فشلا كبيراً، فقد زاد الطغيان بعدها تحكماً فينا، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة ، أو بصنائع الاحتلال المقنعة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ، ولم يحصد الشعب إلا الشكوك فى نفسه، وإلا الكراهية والبغضاء والأحقاد فيما بين أفراده وطبقاته .

وشحب الأمل الذى كان ينتظر أن تحققه ثورة ١٩١٩ .

* * *

ولقد قلت شحب الأمل ، ولم أقل تلاشى ، ذلك لأن قوى المقاومة الطبيعية التى تدفعها الآمال الكبيرة التى تراود شعبنا، كانت لا تزال تعمل عملها وتستعد لمحاولة جديدة .

وكان ذلك هو الحال الذى ساد بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، والذى فرض على الجيش أن يكون وحدة القوة القادرة على العمل .

كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرِّب ما بين أفرادها إطار واحد ، يُبعد عنهم إلى حد ما صراع الأفراد والطبقات ، وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب ، وأن يكون فى استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض ، وأن يكون فى يدهم من عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملا سريعاً حاسماً ؛ ولم تكن هذه الشروط تنطبق إلا على الجيش ..

وهكذا لم يكن الجيش – كما قلت – هو الذى حدد دوره فى الحوادث ، وإنما العكس كان أقرب إلى الصحة ؛ وكانت الحوادث وتطوراتها هى التى حددت للجيش دوره فى الصراع الكبير لتحرير الوطن .

* * *

ولقد أدركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على إدراكنا الكامل لطبيعة الظروف التى نعيش فيها من تاريخ وطننا ، فإننا لم نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرة قلم ، وكذلك لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة أو نقدمها ونتحكم فى الزمن ... وكذلك لم يكن فى استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندى المرور فنوقف مرور ثورة حتى تمر ثورة أخرى ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام ؛ وإنما كان الشىء الوحيد الذى نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الإمكان وننجو من أن يطحننا شقَّا الرحى!

وكان لابد أن نسير فى طريق الثورتين معاً .

ويوم سرنا فى طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروق عن عرشه، سرنا خطوة مماثلة فى طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد الملكية .

وما زلت حتى اليوم أعتقد أنه ينبغى أن تظل ثورة ٢٣ يوليو محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة، لكى تستطيع أن تحقق معجزة السير فى ثورتين فى وقت واحد ، مهما بدا فى بعض الأحيان من التناقض فى تصرفاتنا .

* * *

وحين جاءنى واحد من أصدقائى يقول لى :

« أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الإنجليز ، وأنت فى نفس الوقت تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر فى عملها . . . »

استمعت إليه ، وكانت فى خيالى أزمتنا الكبيرة ، أزمة شقَّى الرحى :

ثورة تقتضينا أن نتحد صفاً واحداً وننسى الماضى .

وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الضائعة لقيم الأخلاق ولا ننسى الماضى !

ولم أقل لهذا الصديق : إن منفذنا الوحيد إلى النجاة ، أن نحتفظ — كما قلت — بسرعة الحركة والمبادأة ، وبالقدرة على أن نسير فى طريقين فى وقت واحد .

ولم أشأ أنا ذلك ، ولا شاءه كل الذين شاركوا فى ٢٣ يوليو .

ولكن القدر شاء ، وتاريخ شعبنا ، والمرحلة التى يمر بها اليوم .

الجزء الثاني

العمل الإيجابي – الحماسة لا تكفى – الرصاص يتكلم – صراخ وعويل فى الليل – ما أسهل أن يراق الدم – جذور فى التاريخ – يا عزيز يا عزيز – الفولاذ ينهار – سوف يتبلور هذا المجتمع – أعصاب الناس وعقولهم – أغضبا الجميع – هذه حدودنا وذلك واجبنا .

ولكن ما الذى نريد أن نصنعه ؟

وما هو الطريق إليه ؟

الحق أنى فى معظم الأحيان كنت أعرف الإجابة على السؤال الأول ، وأخال أنى لم أكن وحدى المنفرد بهذه المعرفة ، وإنما كانت تلك المعرفة أملا انعقد عليه إجماع جيلنا كله .

أما الإجابة على السؤال الثانى « طريقنا إلى هذا الذى نريد » فأنا أعترف أنها تغيرت فى خيالى كما لم يتغير شىء آخر ، وأكاد أعتقد أيضاً أنها موضوع الخلاف الأكبر فى هذا الجيل !

وما من شك فى أننا جميعاً نحلم بمصر المتحررة القوية . . . ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصرى ومصرى .

أما الطريق إلى التحرر والقوة ، فتلك عقدة العقد فى حياتنا .

ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . وظللت أواجهها بعد ذلك كثيراً حتى اتضحت لى زوايا كثيرة كانت الظلال تسقط عليها فتخفيها ، وبدت أمام بصيرتى آفاق كان الظلام الذى ساد وطننا قروناً طويلة يلفها فلا أراها !

* * *

ولقد أحسست منذ انبثق الوعى فى وجدانى، أن العمل الإيجابى يجب أن يكون طريقنا . . . ولكن أىّ عمل !

ولقد تبدو كلمة « العمل الإيجابي » على الورق كافية لتحل المشكلة، ولكنها في الحياة ، وفي الظروف العسيرة التي عاشها جيلنا ، وفي المحن التي كانت تنشب أظفارها في مقدرات وطننا ، لم تكن كافية !

وفي فترة من حياتي كانت الحماسة هي العمل الإيجابي في تقديري.

ثم تغير مثلي الأعلى في العمل الإيجابي وأصبحت أرى أنه لا يكفي أن تضج أعصابي وحدي بالحماسة ، وإنما عليّ أن أنقل حماستي كي تضج بها أعصاب الآخرين . . .

وفي تلك الأيام قُدت مظاهرات في مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقي بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائي كثيرون ؛ ولكن صراخنا ضاع هباء وبددته الرياح أصداء واهنة لا تحرك الجبال ولا تحطم الصخور .

ثم أصبح العمل الإيجابي في رأيي أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة ببيوتهم واحداً واحداً تطلب إليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة . . . ولكن اتحادهم على كلمة واحدة كان فجيعة لإيماني ؛ فإن الكلمة الواحدة التي اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ .

* * *

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وما سبقها بقليل ، على شبابنا فألهبته ، وأشاعت النار في خلجاته ، فبدأ اتجاهنا ، اتجاه جيل بأكمله ، يسير إلى العنف .

وأعترف — ولعل النائب العام لا يؤاخذنى بهذا الاعتراف — أن الاغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة على أنها العمل الإيجابى الذى لا مفر من الإقدام عليه إذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا .

وفكرت فى اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله ، ورحت أحصى جرائمهم ، وأضع نفسى موضع الحكم على أعمالهم ، وعلى الأضرار التى ألحقتها بهذا الوطن ، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذى يجب أن يصدر عليهم .

وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا .

ولم أكن وحدى فى هذا التفكير .

ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير إلى التدبير .

وما أكثر الخطط التى رسمتها فى تلك الأيام ، وما أكثر الليالى التى سهرتها ، أعد العدة للأعمال الإيجابية المنتظرة .

كانت حياتنا فى تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .

كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نتستر بالظلام ، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هى الأمل الذى نحلم به !

وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه ، وما زلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع فى الطريق إلى نهايته .

* * *

والحق أننى لم أكن فى أعماقى مستريحاً إلى تصور العنف على أنه العمل الإيجابى الذى يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا .

كانت فى نفسى حيرة تمتزج بها عوامل متشابكة ، عوامل من الوطنية ومن الدين، ومن الرحمة ومن القسوة ، ومن الإيمان ومن الشك ، ومن العلم ومن الجهل . . .

ورويداً رويداً وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التى توهجت فى خيالى ، تخبو جذوتها وتفقد قيمتها فى قلبى كتحقيق للعمل الإيجابى المنتظر .

وأذكر ليلة حاسمة فى مجرى أفكارى وأحلامى فى هذا الاتجاه . . .

كنا قد أعددنا العدة للعمل .

واخترنا واحداً قلنا إنه يجب أن يزول من الطريق .

ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل .

وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد إلى بيته فى الليل .

ورتبنا فرقة الهجوم التى تتولى إطلاق النار ، ورتبنا فرقة الحراسة التى تحمى فرقة الهجوم ، ورتبنا فرقة تنظيم خطة الإفلات إلى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة ، وخرجت بنفسى مع جماعات التنفيذ .

وسار كل شىء طبقاً لما تصورناه .

* * *

كان المسرح خالياً كما توقعنا ،وكمنت الفرق فى أماكنها التى حددت لها ، وأقبل الواحد الذى كان يجب أن يزول ، وانطلق نحوه الرصاص . . .

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة، وبدأت عملية الإفلات إلى النجاة ، وأدرت محرك سيارتى وانطلقت أغادر المسرح الذى شهد عملنا الإيجابى الذى رتبناه .

وفجأة دوت فى سمعى أصوات صريخ وعويل ، وولولة امرأة ، ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة .

وكنت غارقاً فى مجموعة من الإنفعالات الثائرة ، والسيارة تندفع بى مسرعة .

ثم أدركت شيئاً عجيباً .

كانت الأصوات ما زالت تمزق سمعى .

الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة .

لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت ، ومع ذلك بدأ ذلك كله كأنه يلاحقنى ويطاردنى .

ووصلت إلى بيتى ، واستلقيت على فراشى ، وفى عقلى حمى ، وفى قلبى وضميرى غليان متصل .

وكانت أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ما زالت تطرق سمعى .

* * *

ولم أنم طول الليل .

بقيت مستلقياً على فراشى فى الظلام ، أشعل سيجارة وراء سيجارة ، وأسرح مع الخواطر الثائرة ، ثم تتبدد كل خواطرى على الأصوات التى تلاحقنى .

* أكنت على حق ؟

وأقول لنفسى فى يقين :

ـ دوافعى كانت من أجل وطنى !

* أكانت تلك هى الوسيلة التى لا مفر منها ؟

وأقول لنفسى فى شك :

ـ ماذا كان فى استطاعتنا أن نفعل ؟

* أيمكن حقاً أن يتغير مستقبل بلدنا إذا خلصنا من هذا الواحد أو من واحد غيره ، أم المسألة أعمق من هذا ؟

وأقول لنفسى فى حيرة :

ـ أكاد أحس أن المسألة أعمق .

* إننا نحلم بمجد أمة ، فما هو الأهم : أيمضى من يجب أن يمضى ، أم يجىء من يجب أن يجىء ؟

وأقول لنفسى وإشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر المزدحمة :

ـ بل المهم أن يجىء من يجب أن يجىء . . . إننا نحلم بمجد أمة ، ويجب أن يبنى هذا المجد !

وأقول لنفسى وما زلت أتقلب فى فراشى فى الغرفة التى ملأها

الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات :

— وإذن ؟

وأسمع هاتفاً يرد على :

— وإذن ماذا ؟

وأقول لنفسى فى يقين هذه المرة :

— إذن يجب أن يتغير طريقنا . . . ليس ذلك هو العمل الإيجابى الذى يجب أن نتجه إليه . . . المسألة أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغوارا .

وأحس براحة نفسية صافية ، ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ، تلك التى ما زلت أصداؤها ترن فى أعماقى .

ووجدت نفسى أقول فجأة .

— ليته لا يموت !

وكان عجيباً أن يطلع علىّ الفجر وأنا أتمنى الحياة للواحد الذى تمنيت له الموت فى المساء !

وهرعت فى لهفة إلى إحدى صحف الصباح . . . وأسعدنى أن الرجل الذى دبرت اغتياله . . . قد كُتبت له النجاة .

* * *

ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية .

وإنما المشكلة الأساسية . . . هى العثور على العمل الإيجابى !

ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقى فى شىء أعمق جذوراً وأكثر خطورة وأبعد أغواراً .

وبدأنا نرسم الخطوط الأولى فى الصورة التى تحققت مساء ٢٣ يوليو ؛ ثورة منبعثة من قلب الشعب ،حاملة لأمانيه ، مكملة لنفس الخطوات التى خطاها من قبل على طريق مستقبله .

ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين :

أولهما : ما الذى نريد أن نصنعه ؟

والثانى : وما هو طريقنا إليه ؟

وقلت :إن الإجابة على السؤال الأول أمل انعقد عليه الإجماع .

أما السؤال الثانى — طريقنا إلى الذى نريد أن نصنعه — فهو الذى أطلت فيه الكلام حتى وصلت إلى يوم ٢٣ يوليو !

* * *

ولكن أكان الذى حدث يوم ٢٣ يوليو هو كل ما نريد أن نصنعه !

المؤكد أن الجواب بالنفى ؛ فإن تلك لم تكن إلا الخطوة الأولى على الطريق .

والحق أن فرحة النجاح فى ٢٣ يوليو لم تخدعنى ، ولم تصور لى أن الآمال قد تحققت ، وأن الربيع قد جاء . . . بل لعل العكس هو الصحيح .

لقد كانت كل دقيقة تحمل إلىّ انتصاراً جديداً للثورة ، تحمل

إلىّ فى نفس الوقت عبئاً ضخماً ثقيلا تلقيه بلا مبالاة فوق كتفى .

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث « إنى كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لا تنتظر إلا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمة وراءها صفوفاً متراصة منتظمة زاحفة . »

وقلت : إننى تصورت دورنا على أنه دور الطليعة وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المتراصة المنتظمة .

ورسمت أيضاً فى ذلك الجزء صورة للخلافات والفوضى والأحقاد والشهوات التى انطلقت من عقالها فى تلك اللحظات ، كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها .

ولقد قلت وسأظل أقول إن تلك كانت أقسى مفاجأة فى حياتى !

ولكنى أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذى حدث .

لم يكن يمكن أن نضغط على زر كهربائى فتتحقق أحلامنا .

ولم يكن يمكن فى غمضة عين أن تزول رواسب قرون ومخلفات أجيال .

* * *

ولقد كان من السهل وقتها — وما زال سهلا حتى الآن — أن نريق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف فى كثير من النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقادها وأهواءها .

ولكن أى نتيجة كان يمكن أن يؤدى إليها مثل هذا العمل ؟

ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة أى مشكلة من المشاكل هو ردها إلى أصلها ومحاولة تتبع الينبوع الذى بدأت منه .

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر إلى الظروف التاريخية التى مر بها شعبنا والتى تركت فى نفوسنا جميعاً تلك الآثار وصنعت منا ما نحن عليه الآن .

ولقد قلت مرة إنى لا أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ التاريخ ، فذلك آخر ما يجرى إليه خيالى ، وقلت إنى سأحاول محاولات تلميذ مبتدئ فى التاريخ . . .

* * *

لقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطرق من الدنيا .

وكثيراً ما كنا معبراً للغزاة ومطمعاً للمغامرين ، ومرت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا فيها أن نعلل العوامل الكامنة فى نفوس شعبنا إلا إذا وضعناها موضع الاعتبار .

وفى رأيى أنه لا يمكن إغفال تاريخ مصر الفرعونى ، ثم تفاعل الروح اليونانى مع روحنا ، ثم غزو الرومان ، والفتح الإسلامى ، وموجات الهجرة العربية التى أعقبته .

وفى رأيى أيضاً أنه يجب التوقف طويلا عند الظروف التى مرت علينا فى العصور الوسطى ؛ فإن تلك الظروف هى التى وصلت بنا إلى ما نحن عليه الآن .

وإذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة فى أوربا ، فقد كانت بداية عهود الظلام على وطننا .

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية ، وخرج بعدها فقيراً، معدماً ، منهوك القوى .

وفى نفس الوقت الذى هدّته المعركة ، شاءت له الظروف أن يعانى الذل تحت سنابك خيول الطغاة القادمين من المغول والشركس. . .

كانوا يجتثيون إلى مصر عبيداً فيفتكون بأمرائهم ويصبحون هم الأمراء .

وكانوا يساقون إليها مماليك فلا تمضى عليهم فترة فى البلد الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكاً .

وأصبح الطغيان والظلم والخراب ، طابع الحكم فى مصر على عهدهم الذى عاشت مصر فى مجاهله قروناً طويلة .

تلك الفترة تحوّل فيها وطننا إلى غابة تحكمها وحوش ضارية . كان المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة ، وكان الصراع الرهيب بينهم هو على مقدار نصيب كل منهم فى الغنيمة .

وكانت أرواحنا ، وثرواتنا ، وأراضينا، هى الغنيمة !

* * *

وأحياناً، حينما أعود إلى تقليب صفحات من تاريخنا، أحس بالأسى يمزق نفسى إزاء تلك الفترة التى تكوّن فيها إقطاع طاغ ، لم يجعل له من عمل إلا مص دماء الحياة من عروقنا ، وأكثر من هذا ، سحب بقايا الإحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق، وترك فى أعماق نفوسنا تأثيراً يتعين علينا أن

نكافح طويلا لكى نتغلب عليه . . .

والواقع أن تصورى لهذا التأثير يعطينى فى كثير من الأحيان تفسيراً لبعض المظاهر فى حياتنا السياسية .

أحياناً مثلا يخيل إلىّ أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج الذى لا يعنيه من الأمر إلا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيهما علاقة .

وأحياناً أثور على هذا الوضع ، وأحياناً أقول لنفسى ولبعض زملائى :

لماذا لا يقدمون ، ولماذا لا يخرجون من المكامن التى وضعوا فيها أنفسهم ، ليتكلموا ويتحركوا ؟

ولا أجد تفسيراً لهذا إلا رواسب حكم المماليك .

كان الأمراء يتصارعون ، ويتطاحن فرسانهم فى الشوارع ؛ ويهرع الناس إلى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع الذى لا دخل لهم فيه .

وأحياناً يخيل إلىّ أننا نلجأ إلى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا فى إطار الوهم ما نريده ، ونستمتع نحن بهذا الوهم ونقعد به عن محاولة تحقيقه .

ولم يتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا أن البلد بلدهم وأنهم سادته وأصحاب الرأى والأمر فيه .

ولقد ظللت مرة أحاول أن أتفهم عبارة كثيراً ما هتفتُ بها طفلا صغيراً

حينما كنت أرى الطائرات فى السماء .

لقد كنت أصيح :

« يا ربنا يا عزيز . . . داهية تاخد الانجليز » .

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك ، ولم تكن يومها منصبة على الإنجليز ، وإنما حوّرناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتى لم تتغير وإن تغير اسم الظالم، فقد كان أجدادنا يقولون :

« يا رب يا متجلى . . . اهلك العثمانلى ! » .

* * *

وبنفس الروح التى لم تتغير جرى المعنى على لساننا وإن تغير اسم « الإنجليز » باسم العثمانيين طبقاً للتغيُّرات السياسية التى توالت على مصر بين العهدين !

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك ؟

جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدى الذى فرضه المغول علينا ،وتدفقت علينا أفكار جديدة ،وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد .

وورثت أسرة محمد على كل ظروف المماليك ، وإن حاولت أن تضع عليها من الملابس ما يناسب زى القرن التاسع عشر .

وبدأ اتصالنا بأوربا والعالم كله من جديد .

بدأت اليقظة الحديثة !

وبدأت اليقظة بأزمة جديدة . . .

لقد كنا فى رأيى أشبه بمريض قضى زمناً فى غرفة مغلقة ، واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض تختنق . . .

وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدافعت تيارات الهواء الباردة تلسع جسد المريض الذى ما زال يتصبب عرقاً .

لقد كان فى حاجة إلى نسمة هواء ... فانطلق عليه إعصار عات ، وأنشبت الحمى أظفارها فى الجسد المنهوك القوى !

هذا هو ما حدث لمجتمعنا تماماً ، وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر !

كان المجتمع الأوربى قد سار فى تطوره بنظام ، واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى إلى القرن التاسع عشر خطوة خطوة ، وتلاحقت فى حياته مراحل التطور واحدة إثر أخرى .

أما نحن فقد كان كل شىء مفاجئا لنا .

كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجأة .

كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله ، خصوصاً بعد تحوُّل التجارة مع الشرق إلى طريق رأس الرجاء الصالح ؛ فإذا نحن نصبح مطمع دول أوربا ومعبراً إلى مستعمراتها فى الشرق والجنوب .

وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التى وصلنا إليها فى تطورنا تؤهلنا لقبولها .

كانت أرواحنا ما زالت تعيش فى آثار القرن الثالث عشر ، وإن

سرت فى نواحيها المختلفة مظاهر القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين .

وكانت عقولنا تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التى تخلّفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط مضنياً والسباق مروّعاً مخيفاً .

* * *

وما من شك فى أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود رأى عام قوى متحد فى بلادنا ، فإن الفارق بين الفرد والفرد كبير ، والفارق بين الجيل والجيل شاسع .

ولقد جاء علىّ وقت كنت أشكو فيه من أن الناس لا يعرفون ماذا يريدون ، وأن إجماعهم لا ينعقد على طريق واحد يسيرون فيه ، ثم أدركت بعدها أننى أطلب المستحيل ، وأننى أسقط من حسابى ظروف مجتمعنا . . .

إننا نعيش فى مجتمع لم يتبلور بعد ، وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ،ليواصل تطوره التدريجى بعدُ مع باقى الشعوب التى سبقتنا على الطريق .

وأنا أعتقد دون أن أكون فى ذلك متملقاً لعواطف الناس،أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أى مجتمع تعرّض لهذه الظروف التى تعرض لها مجتمعنا ، وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التى تدفقت علينا . . . ولكننا صمدنا للزلزال العنيف .

صحيح أننا كدنا نفقد توازننا فى بعض الظروف ، ولكننا بصفة عامة

لم نقع على الأرض .

وأنا أنظر أحياناً إلى أسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التى تعيش فى العاصمة .

الأب مثلا فلاح معمم من صميم الريف .

والأم سيدة منحدرة من أصل تركى .

وأبناء الأسرة فى مدارس على النظام الإنجليزى .

وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى .

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين . . .

أنظر إلى هذا وأحس فى أعماقى بفهم للحيرة التى نقاسيها وللتخبط الذى يفترسنا ، ثم أقول لنفسى :

ـ سوف يتبلور هذا المجتمع . سوف يتماسك ، وسوف يكون وحدة قوية متجانسة ، إنما ينبغى أن نشد أعصابنا ونتحمل فترة الانتقال .

تلك إذن هى الأصول التى انحدرت منها أحوالنا اليوم ، وهذه هى الينابيع التى تجرى منها أزمتنا ؛ فلو أضفت إلى هذه الجذور الاجتماعية ، ظروفاً من أجلها طردنا فاروق ، ومن أجلها نريد تحرير بلادنا من أى جندى غريب ـ لو أضفت هذا كله ، لخرجنا إلى الأفق الواسع الذى نعمل فيه ، والذى تهب عليه الرياح من كل ناحية ، وتزمجر فى جنباته العواصف الهوج ، وتتوهج فيه البروق وتهدر الرعود ، والذى قلت إنه من الظلم أن يُفرض فيه علينا حكم الدم ، مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات .

وإذن ما هو الطريق ؟

وما هو دورنا على هذا الطريق ؟

أما الطريق فهو الحرية السياسية الاقتصادية .

وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط ، لا يزيد ولا ينقص . . . الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل .

وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقاً معيناً ، وطال عليها الطريق ، وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها اللصوص وقطاع الطرق ، وضللها السراب ؛ فتبعثرت القافلة ، كل جماعة منها شردت فى ناحية ، وكل فرد مضى فى اتجاه ...

ما أشبه مهمتنا فى هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير .

هذا هو دورنا لا أتصور لنا دوراً سواه .

ولو خطر لى أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت واهماً ، وأنا لا أحب أن أتعلق بالأوهام .

إننا لا نملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لنقوم به .

إنما كل عملنا أن نحدد معالم الطريق كما قلت ، وأن نجرى وراء الشاردين فنردهم إلى حيث ينبغى أن يبدءوا المسير ، وأن نلحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذى يجرون وراءه .

ولقد كنت مدركاً منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة ، وكنت أعلم مقدماً أنها ستكلفنا الكثير من شعبيتنا .

لقد كان يجب أن نتكلم بصراحة ،وأن نخاطب عقول الناس ؛ وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطوا الوهم ، وأن يقولوا للناس ما يريد الناس أن يسمعوه ! .

وما أسهل الحديث إلى غرائز الناس ، وما أصعب الحديث إلى عقولهم !

وغرائزنا جميعا واحدة ، أما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت ؛ وكان ساسة مصر فى الماضى من الذكاء بحيث أدركوا الحقيقة فاتجهوا إلى الغريزة يخاطبونها ، أما العقل فتركوه هائماً على وجهه فى الصحراء !

وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشىء .

كنا نستطيع أن نملأ أعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التى لا تخرج عن حد الوهم والخيال ،أو ندفعهم وراء أعمال غير منظمة لم نعد لها العدة أو تتخذ لها أهبة ، أو كنا نستطيع أن نترك أصواتهم تبح من كثرة هتافهم :

« يا ربنا يا عزيز . . . داهية تاخد الانجليز . »

تماماً كما كان أجدادنا تبح أصواتهم أيام المماليك من كثرة هتافهم :

« يا رب يا متجلى . . . اهلك العثمانلى . »

وبعدها لا شىء !

لكن أكانت تلك هى مهمتنا التى شاءها لنا القدر ؟

وما الذى كنا نستطيع أن نحققه فعلا إذا سرنا فى هذا السبيل ؟

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث إن نجاح الثورة يتوقف على إدراكها لحقيقة الظروف التى تواجهها، وقدرتها على الحركة السريعة؛ وأضيف الآن إلى ذلك أنها يجب أن تتحرر من آثار الألفاظ البراقة، وأن تقدم على ما تتصور أنه واجبها، مهما كان الثمن من شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها!

وإلا فإننا نكون قد تخلينا عن أمانة الثورة وعن واجباتها.

* * *

وكثيراً ما يجيئنى من يقول لى:

– لقد أغضبتم كل الناس.

وعلى مثل هذه الملاحظة أرد دائماً:

– ليس غضب الناس هو العامل المؤثر فى الموقف، وإنما السؤال: هل كان الذى أغضبهم يعمل لصالح الوطن أو لغيره؟

أنا أدرك أننا أغضبنا كبار الملاك.

لكن، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة وطننا وفينا من يملك منها عشرات الألوف من الأفدنة، وفينا من لا يملك قطعة يدفن فيها بعد أن يموت!

وأنا أدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء.

ولكن هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك وطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم الحكم؟

وأنا أدرك أننا أغضبنا عدداً كبيراً من الموظفين.

ولكن هل كان يمكن أن نعطى أكثر من نصف ميزانية الدولة مرتبات للموظفين ولا نستطيع ـ كما صنعنا بالفعل ـ أن نخصص أربعين مليوناً من الجنيهات للمشروعات الإنتاجية ؟

ماذا علينا لو كنا فتحنا ـ كما فعل غيرنا ـ خزائن الدولة ووزعنا ما فيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان ... وليكن ـ أيضاً ـ أن يجىء العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع مرتبات موظفيها أصلا وأساساً .

وما كان أسهل أن نُرضى هؤلاء جميعاً وغيرهم ... ولكن ما هو الثمن الذى كان وطننا سيدفعه من آماله ومستقبله فى مقابل هذا الرضى ؟

* * *

ذلك دورنا الذى حدده لنا تاريخ وطننا ، ولا مفر أمامنا من أن نقوم به ، مهما كان الثمن الذى قد ندفعه .

ولم نخطئ أبداً فى فهم هذا الدور ، ولا فى إدراك طبيعة الواجبات التى يلقيها علينا .

تلك خطوات لإصلاح آثار الماضى ورواسبه ، مضينا فيها وتحملنا من أجلها كل شىء .

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا إننا لا نملك هذا وحدنا .

من أجل ضمان الحياة السياسية فى المستقبل ذهبنا إلى عدد من قادة الرأى من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم :

ـ ضعوا للبلد دستوراً يصون مقدساته .

وكانت لجنة وضع الدستور .

ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية فى المستقبل ذهبنا إلى أكبر الأساتذة فى مختلف نواحى الخبرة وقلنا لهم :

ـــ نظموا للبلد رخاءه واضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه .

وكان مجلس الإنتاج .

تلك حدودنا لم نتعدها :

إزالة الصخور والعقبات من الطريق ، مهما كان الثمن : واجبنا .

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوى الرأى والخبرة ، فرض لازم عليهم، وليس لنا أن نستأثر به دونهم، بل إن مهمتنا تقتضى أن نسعى لجمعهم من أجل مستقبل مصر . . . مصر القوية المتحررة !

الجزء الثالث

بعد غيبة ثلاث شهور – الزمان والمكان – القدر لا يهزل – دوائر ثلاث – دور يبحث عن بطله – فلسطين ليست بلداً غريباً – لقاء مع فقر فلسطين – أغلى أسرار الطيران – أفكار فى ميدان القتال – الأرض والنجوم – نظرة إلى مذكرات وايزمان – الكفاح الواحد وعناصره – القوة بالأرقام – مسئولياتنا فى أفريقيا – الحكمة – الحقيقة فى الحج .

مرة ثالثة أعود إلى فلسفة الثورة .

أعود إليها بعد غيبة طويلة امتدت إلى أكثر من ثلاثة شهور حافلة بالأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة .

ثلاثة شهور حاولت خلالها أكثر من مرة أن أجد الساعات التى أسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ، فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعثرتها فى الفضاء .

ولكن الرياح التى عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر نفسها . صحيح أن هذه الخواطر لم تجر على ورق ، ولكنها ظلت تدور فى تفكيرى وتتفاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أخرى ، سواء فى ذاكرتى أو فى الأيام ، تضيفها إليها لتكمل بها صورة صحيحة واضحة .

ولكن ما هى الصورة الصحيحة الواضحة التى أريد أن أرسمها هذه المرة ، وما هى علاقتها بالمحاولات التى قمت بها قبل ذلك ، فى الجزء الأول ثم فى الجزء الثانى من هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ؟

لقد تحدثت فى الجزء الأول عن بداية الثورة فى نفوسنا كأفراد ، وفى نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا ، وعن الثورة فى تاريخ أمتنا ، وعن يوم ٢٣ يوليو فى هذه الثورة . . .

وفى الجزء الثانى تحدثت عن محاولات على طريق الثورة ، وكيف حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق ، سواء فى نظرتنا المليئة بالعبر إلى

الماضى ، أو فى تطلعنا المفعم بالأمل إلى المستقبل .

وإذن فقد كان حديثى فى الجزأين السابقين عن الزمان ، ومن هنا أشعر بأن المكان يطالب بحقه ، وإذن فليكن الحديث فى هذه المرة عنه .

وليس هدفى أن أدخل فى بحث فلسفى معقد عن الزمان والمكان ، وإنما الذى لا شك فيه هو أن العالم كله وليس وطننا فحسب هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان .

وإذا كنت أقول إننا فى تصويرنا لأحوال وطننا لا نستطيع أن ننسى عنصر الزمان ، فإننا أيضاً وبنسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عصر المكان. وبعبارة أبسط .

نحن الآن لا نستطيع أن نعود إلى القرن العاشر ، نرتدى ملابسه التى تبدو لعيوننا غريبة مضحكة ، ونتوه فى أفكاره التى تظهر أمامنا اليوم أطباقاً من الظلام خلت من كل شعاع .

وكذلك نحن الآن لا نستطيع أن نتصرف على أننا قطعة من ألاسكا المتعلقة بأقصى أصقاع الشمال ، أو على أننا جزيرة « ويك » النائية المهجورة فى تيه الباسفيك.

الزمان إذن يفرض علينا تطوره .

والمكان أيضاً يفرض علينا حقيقته .

ولقد حاولت مرتين أن أمضى مع الزمان ، فلأحاول هذه المرة أن أتجول فى عالم المكان . . .

* * *

وثمة شيء يجب أن نتفق عليه أولا وقبل أن نمضى فى هذا الحديث، ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا .

إن قال لى أحد إن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التى نعيش فيها فإنى أختلف معه .

وإن قال لى أحد إن المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فإنى أيضاً أختلف معه .

ولو كان الأمر كله محصوراً فى حدود عاصمتنا أو فى حدود بلادنا السياسية لهان الأمر ، ولأقفلنا على أنفسنا كل الأبواب وعشنا فى برج عاجى نحاول أن نبتعد فيه بقدر ما نستطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وأزماته تلك التى تقتحم علينا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب .

ولقد مضى عهد العزلة .

وذهبت الأيام التى كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التى تخطط حدود الدول تفصل وتعزل .

ولم يعد مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره، وكيف . . . وكيف .

ولم يبق مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه وما هو مجالها الحيوى وميدان نشاطها ودورها الإيجابى فى هذا العالم المضطرب .

وأنا أجلس أحياناً فى غرفة مكتبى وأسرح بخواطرى فى نفس هذا الموضوع أسائل نفسى :

ـ ما هو دورنا الإيجابى فى هذا العالم المضطرب وأين هو المكان الذى يجب أن تقوم فيه بهذا الدور ؟

وأستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا من أن يدور عليها نشاطنا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا .

إن القدر لا يهزل، وليست هناك أحداث من صنع الصدفة، ولا وجود يصنعه الهباء .

ولن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تاريخنا بتاريخها، وارتبطت مصالحنا بمصالحها... حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة أفريقية، شاء لنا القدر أن نكون فيها، وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره علينا سواء أردنا أو لم نرد ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تُقرُّ بها العقيدة الدينية فحسب، وإنما تشدها حقائق التاريخ .

وكما قلت مرة : إن القدر لا يهزل !

فليس عبثاً أن بلدنا فى جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية

وتشتبك حياته بحياتها .

وليس عبثاً أن بلدنا يقع فى شمال شرق أفريقيا، ويطل من علٍ على القارة السوداء التى يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التى لا تحد .

وليس عبثاً أن الحضارة الإسلامية والتراث الإسلامى الذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الإسلام القديمة — تراجع إلى مصر وآوى إليها فحمته وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى عين جالوت .

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا ، لا نستطيع ، مهما حاولنا ، أن ننساها أو نفر منها .

* * *

ولست أدرى لماذا أذكـــر دائماً عندما أصل إلى هذه المرحلة من أفكارى وأنا جالس وحدى فى غرفتى شارد مع الأفكار ، قصة مشهورة للشاعر الإيطالى الكبير « لويدجى بيراندلـّو » أسماها ست شخصيات تبحث عن ممثلين !

إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه .

وإن ظروف التاريخ أيضاً مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم تجد بعدُ الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه، ولست أدرى لماذا يخيل إلىّ دائماً أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل

الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لماذا يخيل إلىّ أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه، فإن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به .

وأبادر هنا فأقول إن الدور ليس دور زعامة .

إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها . ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور إيجابى فى بناء مستقبل البشر .

* * *

وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطاً بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ ، وعانينا معها نفس المحن، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك .

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضاً بالدين ، فنقلت مراكز الإشعاع الدينى ، فى حدود عواصمها من مكة إلى الكوفة . . . ثم إلى القاهرة .

ثم جمعها الجوار فى إطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسى أن طلائع الوعى العربى بدأت تتسلل

إلى تفكيرى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية أخرج مع زملائى فى إضراب عام فى الثانى من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجاً على وعد بلفور الذى منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطناً قومياً فى فلسطين اغتصبته ظلماً من أصحابه الشرعين .

وحين كنت أسائل نفسى فى ذلك الوقت لماذا أخرج فى حماسة ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التى لم أرها ؟ لم أكن أجد فى نفسى سوى أصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيرى حول هذا الموضوع لما أصبحت طالباً فى الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التى جعلت منها فى القرن الأخير فريسة سهلة تخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة !

ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الأعمدة التى تتركز عليها حقائقه لما بدأت أدرس وأنا طالب فى كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل .

ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعاً فى أعماقى بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة ، وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة؛ وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس .

* * *

وأذكر يوماً،عقب صدور قرار تقسيم فلسطين فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعاً، واستقر رأيهم على

مساعدة المقاومة فى فلسطين ، وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب بيت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين، وكان ما يزال يعيش فى الزيتون ، وأقول له :

ــ إنكم فى حاجة إلى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين؛ وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم تحت أمرك فى أى وقت تشاء !

وقال لى الحاج أمين الحسينى إنه سعيد بهذه الروح، ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئاً .

ثم قال لى الحاج أمين :

ــ سوف أعطيك ردى بعد استئذان الحكومة .

وعدت إليه بعد أيام، وكان رده، الرد الذى حصل عليه من الحكومة ، هو الرفض !

ولم نسكت . . .

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبى القدس، وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التى تحولت اليوم إلى مجلس قيادة الثورة .

وأذكر سرا آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار .

كان حسن إبراهيم قد سافر إلى دمشق واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجى، وكان القاوقجى يقود قوات التحرير العربية ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة فى المنطقة الشمالية من فلسطين .

ووضع حسن إبراهيم وعبد اللطيف بغدادى خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير .

وكانت الخطوط البارزة فى تلك الخطة هى أن قوات التحرير العربية لا تملك طيراناً يساعدها فى المعركة ويرجح النصر إلى كفتها ، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فوق ميدان العملية ، لكان ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم .

ولم يتردد حسن إبراهيم وعبد اللطيف بغدادى، وإنما قررا أن يقوم سلاح الطيران المصرى بهذه المهمة .

ولكن كيف ؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة — بما فيها سلاح الطيران — حذراً متيقظاً !

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها إلى تفاصيل الخطة .

بدأت فى مطار سلاح الطيران حركة عجيبة . . . وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح طائرات وإعدادها، وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين .

ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر . . .

يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجىء فيه من سوريا إشارة سرية ، فينطلقون بعدها إلى الجو ليشتركوا بكل قوتهم فى معركة حاسمة على الأرض المقدسة ، ثم يتجهون بعد ذلك إلى مطار قرب دمشق،

ينزلون فيه ويترقبون الأحوال فى مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التى أقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها !

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك فى هذه العملية ، وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة إلى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد . . .

وكان شعورنا فى اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار ، والمؤكد أن نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين فى السر الكبير ، أن هذه المخاطر الجريئة لم تكن حباً فى المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة فى نفوسنا ، إنما كانت وعياً ظاهراً لإيماننا بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود إخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم فى منطقة واحدة .

* * *

ولم تتم الخطة يومها . . . لأننا لم نتلق الإشارة السرية من سوريا .

وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب فى فلسطين .

ولست أريد أن أدخل فى تفاصيل حرب فلسطين — الآن — فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث ، وإنما يعنينى من حرب فلسطين درس عجيب .

لقد دخلتها شعوب العرب جميعاً بدرجة واحدة من الحماسة ؛ وإذن فهذه الشعوب جميعاً تتشارك فى شعورها وفى تقديرها لحدود

سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ؛ وإذن فهى جميعاً ، كل منها فى بلاده ، قد تعرضت لنفس العوامل وحكمتها نفس القوى التى ساقتها إلى الهزيمة ونكست رأسها بالذل والعار .

ولقد خلوت إلى نفسى مرات كثيرة فى خنادق عراق المنشية وفى جحورها .

وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التى كانت تقف فى ذلك القطاع وتدافع عنه أحياناً وتهاجم فى أكثر الأحيان .

وكنت أخرج إلى الأطلال المحطمة من حولى بفعل نيران العدو ، ثم أسبح بعيداً مع الخيال .

وأحياناً كانت الرحلة مع الخيال تمضى بى بعيداً بعيداً إلى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة كلها .

وكانت الصورة تبدو فى ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتى .

هذا هو المكان الذى نقبع محاصرين فيه ، هذه مواقع كتيبتنا ، وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

وهذه قوات أخرى لنا . . . هى الأخرى محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وإن بقى لها مجال للمناورة المحدودة .

إن الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى نتلقى منها الأوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزاً أكثر من الذى تصنعه بنا نحن القابعين فى

منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات إخواننا فى السلاح وفى الوطن الكبير وفى المصلحة المشتركة وفى الدافع الذى جعلنا نهرول إلى أرض فلسطين .

هذه هى جيوش إخواننا . . . جيشنا جيشنا . . . كلها هى الأخرى محاصرة . . . بفعل الظروف التى كانت تحيط بها والتى كانت تحيط بحكوماتها . . . لقد كانت جميعاً تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا إرادة إلا بقدر ما تحركها أيدى اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعاً تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفت عنها عمداً حقيقة ما يجرى ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه .

وأحياناً كنت أهبط من ارتفاع النجوم إلى سطح الأرض، فأحس أننى إنما أدافع عن بيتى وعن أولادى ، ولا تعنينى أحـــلامى الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ !

وكان ذلك عندما ألتقى فى تجوالى فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون ؛ وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت أراها وقد خرجت إلى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش .

وكنت دائماً أقول لنفسى :

ــ قد يحدث هذا لابنتى !

وكنت مؤمناً أن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث ــ

وما زال احتمال حدوثه قائماً — لأى بلد فى هذه المنطقة ما دام مستسلماً للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن .

* * *

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك فى فلسطين وعدت إلى الوطن ، كانت المنطقة كلها فى تصورى قد أصبحت كلا واحداً .

وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد فى نفسى .

كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجده أصداء يتجاوب بعضها مع بعض .

كان الحادث يقع فى القاهرة فيقع مثيل له فى دمشق غداً ، وفى بيروت ، وفى عمان ، وفى بغداد ، وغيرها .

وكان ذلك كله طبيعياً مع الصورة التى رسمتها التجارب فى نفسى .

منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل . . . بل ونفس القوى المتألبة عليها جميعاً !

وكان واضحاً أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى .

حتى إسرائيل نفسها ، لم تكن إلا أثراً من آثار الاستعمار .

فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطانى لما استطاعت الصهيونية أن تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومى فى فلسطين ، ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنوناً ليس له أى أمل فى واقع .

وأنا أكتب هذه الخواطر وأمامى مذكرات حاييم وايزمان رئيس جمهورية إسرائيل ومنشئها الحقيقى ، وهى المذكرات التى نشرها فى كتابه

المشهور « التجربة والخطأ » وثمة عبارات معينة ذات طابع خاص تستوقفني فيه .

يستوقفني قول وايزمان :

« لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكان في العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا : ألمانيا وبريطانيا .

أما ألمانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل .

وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف . . . » .

ويستوقفني بعد ذلك قول وايزمان :

« ولقد حدث في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقدناه في سويسرا أن وقف هرتزل يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى ، وبريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض ، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، منفصلة عن غيرها .

وإننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة . وقرأ هرتزل خطاباً من اللورد لاترسون نائباً عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى ، وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطناً قومياً .

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه في المهد ودفناه دون ضجة .

وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا .

وعلى أثر هذا العرض ألفنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود

سافروا إلى مصر لدراسة منطقة سيناء ، وقابلوا فى القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر الذى أظهر كل العطف على أمانينا فى الوطن القومى .

ولكن اللجنة لم تجد فى منطقة سيناء ما يفى بالغرض الذى كنا من أجله نريد الوطن القومى .

ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانية الذى بادر بسؤالى على الفور :

ـ لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومى فى أوغندا ؟ .

وقلت لبلفور :

ـ إن الصهيونية حركة سياسية قومية . هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن إغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحى فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى .

ثم قلت لبلفور :

ـ ماذا تقول لو أن أحداً قال لك خذ باريس بدلا من لندن ، هل تقبل ؟ » .

ويستوقفنى أيضاً قول وايزمان :

« وعدت إلى لندن فى خريف سنة ١٩٢١ ، وكان الغرض من رجوعى أننى دعيت إلى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطانى فى فلسطين .

وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها قراراً

بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها .

وكان لورد كيرزون قد ولى وزارة الخارجية محل بلفور، وكان هو المسئول عن وضع مشروع الوثيقة .

وكان معنا فى لندن القانونى الشهير بن كوهين، وهو من أقدر واضعى الصيغ القانونية فى العالم، وكان ايريك فوربس آدام سكرتير كيرزون يتعاون معنا .

ووقع بيننا وبين كيرزون خلاف أول وأخير .

كتبنا نحن فى مشروع الوثيقة عبارة أردنا فيها أن نقيد بريطانيا بوعد بلفور، وبأن تكون خطتها فى فلسطين قائمة على أساس الوطن القومى لليهود .

وكان نص العبارة التى كتبناها نحن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية فى فلسطين » .

وقال كيرزون إنه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها ، ويرى أن تكون العبارة كما يلى :

والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية فى فلسطين » .

وكنت أود أن أستطرد طويلا مع وايزمان فى « الخطأ والتجربة » ، ولكننا جميعاً نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجراثيم الأولى للمضاعفات التى مزقت كيان فلسطين فيما بعدُ ودمرت وجودها !

* * *

وأعود إلى الذى كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوه الكبرى التى

تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلا غير مرئىّ ، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذى كان يحيط بخنادقنا فى « الفالوجة » وبجيوشنا جميعاً وبحكوماتنا فى العواصم التى كنا نتلقى منها الأوامر .

ولقد بدأتُ بعد أن استقرت كل هذه الحقائق فى نفسى ، أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسى :

ــ ما دامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحداً ... والعدو واحداً مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة ــ فلماذا تتشتت جهودنا ؟

ثم زادتنى تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو إيماناً بهذا الكفاح الواحد وضرورته .

فلقد بدأت خبايا الصورة تتكشف ، والظلام الذى كان يحيط بتفاصيلها ينقشع .

وأعترف أنى كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التى تسد الطريق إلى الكفاح الواحد ، ولكنى بدأت أومن بأن هذه العقبات نفسها ينبغى أن تزول ، لأنها من صنع ذلك العدو الواحد نفسه .

ولقد بدأت أخيراً فى اتصالات سياسية من أجل توحيد الكفاح مهما كانت وسيلته ، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة ، هى أن العقبة الأولى فى طريقنا هى « الشك » ، وكان واضحاً أن بذور هذا الشك قد بذرها فى نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه ، لكى يحول بيننا وبين الكفاح الواحد !

وأذكر أنى جلست فى الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من ساسة العرب ، وكان معنا زميل له ؛ وبدأتُ أتكلم ، وبدأ هو يرد على الذى أقوله .

وكان يقول العبارة ثم يلتفت إلى زميله ليرى أثر الذى يقوله فى وجهه ، بدل أن يحاول استكشاف أثره فىَّ أنا .

وبدأت أقول له : تغلَّب على كل ما فى نفسك من شكوك ، وقل لى كل ما فى قلبك ، وانظر إلىَّ وفى عينى ولا تُدر وجهك !

ولست أريد بذلك أن أهوِّن من أمر العقبات التى تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ، فلا شك أن بعضها معقد تمتد أصوله إلى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ؛ ولكن المؤكد أنه يمكن مع شىء من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا على التفريط ، إيجاد الخط الذى يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تحرج ، وبلا عنت ، لمواجهة الكفاح الواحد .

* * *

ولست أشك دقيقة أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذى نريده لها ونتمناه .

ولسوف أظل دائماً أقول إننا أقوياء ، ولكن الكارثة الكبرى أننا لا ندرك مدى قوتنا !

إننا نخطىء فى تعريف القوة ؛ فليست القوة أن تصرخ بصوت عال ، إنما القوة أن تتصرف إيجابياً بكل ما تملك من مقوماتها .

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفراً من أن أضع ثلاثة

مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل الحساب .

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعث فى جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة ، لا يمكن قَطُّ إغفالها فى محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام .

هذا هو المصدر الأول .

أما المصدر الثانى فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم، ذلك الموقع الاستراتيجى الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

يبقى المصدر الثالث،وهو البترول الذى يعتبر عصب الحضارة المادية، والذى بدونه تستحيل كل أدواتها — المصانع الهائلة الكبيرة لكافة أنواع الإنتاج ، وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، أسلحة الحرب سواء فى ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب أو الغواصة المتسترة تحت أطباق الموج — تستحيل كلها قطعاً من الحديد يعلوها الصدأ لا تنبعث منها حركة . . . أو حياة .

وبودى لو وقفت قليلا عند البترول . فلعل وجوده كحقيقة مادية تقرر الإحصائيات والأرقام يصلح ليكون نموذجاً للمناقشة فى أهمية مصادر القوة فى بلادنا .

ولقد قرأت أخيراً رسالة طبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف البترول ،

وبودى لو كان لكل فرد من أفراد شعوبنا أن يقرأها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره فى المعنى الكبير الكامن وراء أرقامها وإحصائياتها .

* تقرر هذه الرسالة مثلا أن العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يتكلف كثيراً من المال .

لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليوناً من الدولارات فى كولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت إلا فى سنة ١٩٣٦ .

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليوناً من الدولارات فى فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت إلا بعد مرور ١٥ سنة .

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليوناً من الدولارات فى جزر الهند الهولندية وأخيراً عثرت على الزيت .

وكانت النتيجة الأخيرة التى قررتها هذه الرسالة فى هذا الموضوع .

إن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا هو ٧٨ سنتاً .

وإن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتاً .

وإن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى البلاد العربية هو ١٠ سنتات .

* إن عاصمة إنتاج البترول فى العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التى استنزفت آبارها وارتفع سعر الأرض فيها وزادت أجور الأيدى العاملة لأبنائها ، إلى المنطقة العربية التى ما زالت آبارها بكراً ، والتى

ما زالت أراضيها الشاسعة بلا ثمن ، والتى ما زالت يدها العاملة تقبل مادون الكفاف .

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية ، والنصف الباقى موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبى وغيرها من بلاد العالم .

وثبت أيضاً أن متوسط إنتاج البئر الواحدة فى اليوم من الزيت هو :

١١ برميلا فى الولايات المتحدة.

٢٣٠ برميلا فى فنزويلا .

٤٠٠٠ برميل فى المنطقة العربية .

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟ أرجو أن أكون قد وفقت .

وإذن فنحن أقوياء ، أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول ، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ؛ إنما أقوياء حين نهدأ ، أوحين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة .

* * *

هذا عن الدائرة الأولى التى لا مفر من أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهى الدائرة العربية .

فإذا اتجهت بعد ذلك إلى الدائرة الثانية ، وهى دائرة القارة الأفريقية

قلت دون استفاضة ودون إسهاب إننا لن نستطيع بحال من الأحوال — حتى لو أردنا — أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الأفريقيين .

لا نستطيع لسبب هام وبدهى ، هو أننا فى أفريقيا .

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع إلينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله .

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل ، شريان الحياة لوطننا ، يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضاً أن السودان — الشقيق الحبيب — تمتد حدوده إلى أعماق أفريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها .

والمؤكد أن أفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوربية يحاول الآن إعادة تقسيم خريطتها ؛ ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى أفريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا .

ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه فى القاهرة معهداً ضخماً لأفريقيا ، يسعى لكشف نواحى القارة أمام عيوننا ، ويخلق فى عقولنا وعياً أفريقياً مستنيراً ، ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على

تقدم شعوب القارة ورفاهيتها .

* * *

ثم تبقى الدائرة الثالثة . . . الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة ، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد إيمانى بمدى الفاعلية الإيجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامى بين جميع المسلمين أيام ذهبتُ مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير .

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام، ثم وجدتنى أقول لنفسى :

ــ يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج ، لا يجب أن يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

تجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه مؤتمراً سياسياً دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة . وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها ، وشبابها ، ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامى العالمى خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معاً ،

حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

يجتمعون خاشعين... ولكن أقوياء ؛ متجردين من المطامع ، ولكن عاملين ؛ مستضعفين لله ، ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم ؛ حالمين بحياة أخرى ، ولكن مؤمنين بأن لهم مكاناً تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة .

وأذكر أنى قلت بعض خواطرى هذه بجلالة الملك سعود ، فقال لى الملك :

ـ إن هذه هى فعلا ، الحكمة الحقيقية فى الحج .

وفى الحق أنى لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى .

وحين أسرح بخيالى إلى ثمانين مليوناً من المسلمين فى إندونيسيا ، وخمسين مليوناً فى الصين ، وبضعة ملايين فى الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليوناً داخل الاتحاد السوفييتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة ـ حين أسرح بخيالى إلى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج بإحساس كبير بالإمكانيات الهائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعاً ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولإخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة .

* * *

ثم أعود إلى الدور التائه الذى يبحث عن بطل يقوم به . . .

ذلك هو الدور وتلك هى ملامحه وهذا هو مسرحه . . .

ونحن وحدنا بحكم « المكان » نستطيع القيام به !

الكتاب التالى

من مجموعة اخترنا لك

أفريقيا
حلم الاستعمار البريطانى

يصدر فى

أول يونيو ١٩٥٤



الطابع والناشر

دار المعارف بمصر